

سنة الله في إهلاك الظالمين والمكذبين

الكاتب: د راغب السرجاني



## سنة الله في إهلاك المكذبين من الأمم السابقة

وكانت سنة الله عز وجل في إهلاك الظالمين السابقين قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهلكهم بخارقة، وكان المؤمنون لا يرفعون سيفاً ولا يشتكون في قتال، فلما حدثت هذه الخطورة على بيت الله الحرام طبقت هذه السنة الإلهية حتى في غياب المؤمنين.

وهذا ما كان يحدث أيضاً مع الأنبياء السابقين قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنوح عليه السلام -على سبيل المثال- لما كذبه قومه وشعر أنه لا أمل في إيمانهم دعا الله عز وجل عليهم، كما صور الله عز وجل ذلك في كتابه الكريم فقال: **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَإِنَّتَصِرْ** [القمر: 10] ، قال تعالى: **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا إِنْهَمْ \* وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَّقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ \* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِدِ وَدُسْرِ** [القمر: 11-13] ، فلم يحدث لقاء بين المؤمنين وبين الكافرين، وإنما جاء الطوفان وحمل الله عز وجل المؤمنين في السفينه، وكانت النجاة بهذه الخارقة.

ولوط عليه السلام أيضاً لما كذبه قومه قال: **رَبِّنَجِنِي وَاهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ** [الشـعـراء: 169] ، فجاءت الأوامر من الله عز وجل: **فَأَسْرِي بِاهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْلَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمِرُونَ** [الحجر: 65]. ثم بعد أن خرج لوط عليه السلام من القرية الظالمة قال الله عز وجل: **فَجَعَلْنَا عَالِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلِ** [الحجر: 74].

وحتى بنو إسرائيل الذين حملهم الله عز وجل أمانة إقامة دولة وإنشاء أمّة لما أحيط بهم في أرض مصر وانقطع أمل موسى عليه السلام في إيمان فرعون وقومه قال موسى عليه السلام كما قال الله عز وجل في كتابه: **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** [يونس: 88] ، فجاء الأمر الإلهي: **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُثَبَّعُونَ**

[الدخان: 23]، ولم يحدث لقاء بين قوم موسى وبين فرعون، ولم يؤمر قوم موسى بقتال فرعون وجنوده، وإنما أمروا بالخروج من مصر إلى غيرها، فانطلق موسى عليه السلام ومن معه من بنى إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر، فلما وصلوا إلى هناك فقد بُنِي إسرائيل الأُمُل في النجاة؛ لأنهم رأوا جيوش فرعون من ورائهم.

والله عز وجل يصور هذا الموقف في كتابه الكريم فيقول: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ  
قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ \* قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء: 61-62]، فالكلمة الوحيدة المؤمنة التي قيلت في مثل هذا الموقف هي كلمة موسى عليه السلام، قال كلاً إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء: 62]، وأما بقية القوم فإنهم اضطربوا اضطراباً شديداً لما رأوا جيش فرعون، ومع ذلك قال الله عز وجل: فَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ \* وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخَرِينَ \* وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعْهُ أَجْمَعِينَ [الشعراء: 63-65]، ولم يكن هناك ضحايا ولا شهداء، وكلبني إسرائيل نجوا مع كونهم قالوا: (إنا لمدركون)، ثم قال عز وجل: ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [الشعراء: 66]، فشق البحر وأهلك فرعون عليه لعنة الله ومن معه من الجنود.

وكانت حادثة الفيل هي آخر الحوادث التي نصر فيها الدين بخارقة، وما زالت سنة إهلاك الظالمين باقية: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ [إبراهيم: 13]، وهذا الكلام لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ [إبراهيم: 13] مطلق، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [إبراهيم: 14]، فأي أمة تخاف مقام الله عز وجل وتخاف وعيده عز وجل فلا بد أن تتمكن في النهاية، ولا بد أن يهلك الظالمون لها، فهي سنة ماضية إلى يوم القيمة.

سنة الله في إهلاك الظالمين بعد بعثة النبي

ولكن مع بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرت طريقة الإهلاك، فقد

كان الظالمون في السابق يهلكهم الله بخوارق، وأما في رسالة الإسلام فالسنة هي: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثْبِتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد: 7].

فلا بد أن يقدم المسلمون العمل والعمل الخالص لله عز وجل الصحيح على منهاج النبوة، فإذا قدموا العمل الصالح أنزل الله عز وجل ما يشبه الطير الأبابيل، فينزل بركة ورحمة وأمناً وتأييدها وتوفيقاً على المؤمنين، وسخطاً ونقاً وعذاباً وهلاكاً على الكافرين، ولكن بغير عمل لن تنزل الطير الأبابيل، وبغير جهد وبذل وعطاء لن ترمى حجارة من سجيل. هذه السنة الجديدة الخاصة بأمة الإسلام، وهي سنة ماضية إلى يوم القيمة لا تبدل لها ولا تحويل، إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثْبِتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد: 7].

وكثير من الناس أحبطوا من رؤية الظالمين يتمكنون من رقاب المؤمنين، وجلسوا ينتظرون نزول الطير الأبابيل، ويراقبون الموقف من بعد، ومستحيل أن تنزل الطير الأبابيل على الكافرين فتهلكهم، فانتظارهم هذا وهم وغياب فهم وعدم فقه لسنة الله عز وجل في التغيير، بل لابد أن يعتمد المسلمون على أنفسهم وعلى سواعدهم وعلى شرعهم ومنهجهم وعلى ربهم، والاعتماد على الله عز وجل لا يكون إلا كما يريد هو سبحانه وتعالى، لا كما نريد نحن بأهواننا.

والله عز وجل وضع لنا سنناً واضحة في التغيير قد تختلف حسب المرحلة التي يعيشها المسلمون، فقد يكتفي المسلمون في زمن بالدعوة، وقد تكون الدعوة سراً أو جهراً، وقد يحتاج المسلمون إلى معايدة، وقد يحتاجون إلى جهاد، وقد يجاهدون قوماً ويتركون آخرين، وقد يجاهدون الكفار أجمعين، فيحسب المرحلة تتغير الطريقة، ولكن في كل الأحوال لا بد أن يقدم المسلمون شيئاً، فلن ينزل النصر على قوم كسالي قاعد़ين أو سلبيين.

وأنا لا يعجبني الدعاء الذي يدعوه به بعض الناس بقولهم: اللهم أهلك الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين. وأنت أين هو دورك؟! أتكتفي بالمراقبة ثم تنتظر أن تسوقك الأحداث سوقاً إلى سيادة وتمكين وعز وصدارة؟! هذا وهم -إخواني في الله!- وليس من سنن الله عز وجل، إنما السنة إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثْبِتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد: 7].

وتذكروا أننا لسنا في زمان أبرهة، فلن تنزل الطير الأبابيل الآن على الظالمين إذا فر من أمامهم الصالحون إلى رءوس الجبال. فنحن الآن نشاهد الصواريخ والطائرات والدبابات والبواخر الأمريكية تعريد في كل بلاد المسلمين، والمسلمون ينظرون بحسرة لمن جاء يدمر بلادهم وأوطانهم، ويقتل أبناءهم وشيوخهم ونساءهم، وهم يقولون: عسى الله أن يرسل عليهم طيراً أبابيل، أو يرميهم بحجارة من سجيل، أو يحدث معجزة أو يأتي بخارقة تدمرهم، فإلى هؤلاء الذين يعتقدون مثل هذا الاعتقاد وينتظرون الصواعق أن تنزل على قاصفات أمريكا، وينتظرون خسفاً بجنود الأمريكية في الكويت والسعودية والعراق وقطر وعمان وتركيا وباكستان وأفغانستان وأوزبكستان وغيرها من بلاد المسلمين، وينتظرون الطوفان ليغرق أساطيل الأمريكية في الخليج العربي وفي البحر الأبيض والأحمر والأسود والأصفر وكل ألوان الدنيا، إلى هؤلاء جميعاً أوجه نداء من قلبي إليهم وأقول: سيطول انتظاركم ولن تنزل الطير الأبابيل أو أشباهها إلا بعمل سنة واضحة، إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد: 7].

المصدر:

محاضرة لسنا في زمن أبرهة، للدكتور راغب السرجاني

الكلمات المفتاحية:

#raghib-sarjani #لسنا-في-زمن-إبرهة #الظالمين #المكذبين

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.